جهود أصحاب الطبقات في تدوين السيرة النبوية:

قراءة في النماذج المؤسسة.

الدكتور العربي الدائز الفرياطي [1]

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد إمام المرسلين وخاتم النبيين، وعلى أصحابه وأتباعه وأشياعه أجمعين.

وبعد،

لقد تداعت الأمة جميعها؛ علماؤها وفقهاؤها وأدباؤها ومحدثوها عبر تاريخها الطويل بل تسابقت إلى العناية بسيرة الرسول الأعظم ﷺ حفظا وجمعا وتدوينا؛ ذلك أن كل مسلم في العالم مهما كان وصفه وجنسه وبلده وفي كل عصر عاش يجب أن يكون شعوره بالمحبة الخالصة والمنة البالغة للنبي ﷺ بل إن ذلك من أوثق عرى الإيمان كما في الصحيح: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده، ووالديه، والناس أجمعين» [2].

ولا غرابة أن يتناول أهل الحديث والأثر، وحفاظ السنن سيرة النبي ﷺ بالتدوين والدراسة؛ والبحث والمدارسة؛ لأن تعلقهم بالرسول الأعظم أشد، وصلتهم به أوثق وأحق؛ لأنه ما حملهم على معاناة الأسفار، وقطع الفيافي والقفار إلا حب سنته، والتشبث بآثاره، والتعرف على دقائق أحواله كما قال الشاعر:

يا سادة عندهم للمصطفى نسبُ... رفقاً بمن عنده للمصطفى حسبُ

أهل الحديث هم آل الرسول وإن... لم يصحبوا نفسه أنفاسه صحبوا [3]

ويقول أحدهم:«وكفى بالمحدث شرفا أن يكون اسمه مقرونا باسم النبي ﷺ، وذكره متصلا بذكره، وذكر أهل بيته وأصحابه»[4].

---

(1)باحث بكلية الآداب ــ مراكش.

(2)انظر: رواه البخاري في صحيحه 12/1(15)، ومسلم في صحيحه 1/ 67(70 - (44) من حديث أنس.

(3)انظر: اللطائف من دقائق المعارف لأبي موسى المديني (ص: 44)

(4)انظر: كتاب المحدث الفاصل للرامهرمزي (ص: 161)

كما أنه لم يكن بدعا من الأمر أن يهتم أصحاب الطبقات ـــ وهم من أعلام المحدثين ـــ بذلك أيضا لأن النبي ﷺ هو أول المسلمين:{قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (11) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (12)} [الزمر: 11، 12] وهو المعلم والمربي الأول في هذه الأمة: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (164)} [آل عمران: 164]

وهو إمام هذه الطبقات جميعها؛ لأن جميع الطبقات تنتهي إلى طبقة الصحابة، والصحابة جميعهم يجتمعون في الأخذ عن النبي ﷺ فالسيرة النبوية في فكر أصحاب الطبقات هي الأساس والمنطلق، وهي عندهم بمثابة الرأس من الجسد فلا تصور حياة بدونه، وهذا ما يظهر جليا في تصرفاتهم فإنك تجدهم لا يستغنون عن نُبذ يسيرة من السيرة النبوية حتى في الكتيبات الصغيرة التي كان القصد منها الاختصار.

وأكثر من ذلك، يمكن القول بأن الأمة جميعها بدءا بالصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم ليست في النهاية إلا نتيجة لدعوة النبي ﷺ وتعليمه وتزكيته فهو الذي هدى الله به من العمى، وبصر به من الغي، وأنقذ به من الضلالة، وأُخرجنا به من الظلمات إلى النور، وبالتالي فسير الصحابة ـــ رضي الله عنهم ـــ هي بمثابة التكملة للسيرة النبوية؛ لأنهم خريجوا مدرسة النبوة النجباء.

وفي سياق بيان لهذا الملحظ، وإبراز لهذا المقصد يأتي هذا البحث المتواضع:«جهود أصحاب الطبقات في تدوين السيرة النبوية».

وقبل الشروع في البحث أود أن أوضح أهم مفردات العنوان:

ـــ فـــ«الجهود» جمع جَهد وجُهد قال تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ} [التوبة: 79] قرئ بالفتح والضم وتعني الوسع والطاقة

وفرق بعضهم كالفراء فقال: الجُهد بالضم الطاقة. والجَهد بالفتح من قولك: «اجهد جَهدك في هذا الأمر» أي ابلغ غايتك»[1]

وبين ابن فارس بأن أصل معناه: المشقة، ثم يحمل عليها ما يقاربها [2]

ولفظة«الجهود» في هذا السياق عبارة معاصرة متداولة بين الدارسين؛ شرحها في المعجم الوسيط بأنها:«كلُّ نشاط يبذله الكائنُ الواعي جسميًّا أو عقليًّا، ويهدف غالبًا إلى غاية» [1].

---

(1)انظر: الصحاح للجوهري460/2

(2)انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس486/1

وهذا تعريف عام غير مخصص بمجال، ويحتاج إلى تقييد ؛ وأعني بها في بحثي هنا مجموع المحاولات والمساهمات والطاقات التي بذلها علماء الطبقات من خلال مصنفاتهم في مجال كتابة السيرة النبوية.

والطبقات جمع طبقة وأصل مادة (طبق) يدلُّ على وضع شيء مبسوط على مِثله حتى يُغطِّيَه.[2]

ويعنى بها في الاصطلاح عند المحدثين:عبارةٌ عنْ جماعةٍ اشْتَركوا في السِّنِّ ولقاءِ المشايخِ.[3]

والمقصود بأصحاب الطبقات هنا المؤلفون الذين عنوا بتقسيم الرواة والمحدثين إلى طبقات متعاقبة في تصانيفهم، وفي مقابلهم الذين يرتبون الرواة على حروف المعجم مثل كتب الجرح والتعديل وكتب التاريخ.

وبخصوص مراجع البحث ومصادره لم أجد من سبق لبحثه، ونهض لمعالجته بالصورة التي أتوخاها إلا إشارة عابرة وجدتها في بحث«مصادر السيرة النبوية بين المحدثين والمؤرخين» للدكتور عبد الرزاق هرماس الذي خصص المبحث السابع من (الفصل الرابع: المصدر الرابع: كتب السيرة) لكتب الطبقات كمصدر من مصادر كتابة السيرة النبوية، وهي إشارة عجلى خاطفة في (3) صفحات تضمنت تعريفا بكتب الطبقات، ثم أشهر المصنفات فيها وأخيرا ألمح إلى شيء من منهج ابن سعد في الطبقات الكبرى، ولم يشر إلى ابن حبان في كتاب الثقات ولا إلى غيره، ولذا كان لزاما علي أن أرجع إلى أصحاب الطبقات أنفسهم والتأمل في صنيعهم لبيان جهودهم ومساهمتهم في الموضوع.

وقد استقام لي مخطط البحث بعد التروي وإجالة النظر في المصادر والمعلومات المتوفرة فيها على النحو التالي:

ـــ **مقدمة**: وفيها ديباجة، وشرح أهم مفردات العنوان، وخطة البحث، ومنهجه.

ويليها ثلاثة مباحث:

ـــ المبحث الأول: التعريف بـــ:«محمد بن سعد» وجهوده في تدوين السيرة.

---

(1)انظر: المعجم الوسيط 142/1، وخصه محرِّرُو المعجم بأنه في (فن الفلسفة) وهو لا يختلف عن هذا المعنى في الاستعمال الدارج بين الدارسين والباحثين المعاصرين في البحوث؛ حينما يقول أحدهم: «جهود علماء كذا..» أو «جهود العالم فلان في كذا..» مثلا إنما يعني نشاطه واجتهاده الذي بذله في ذلك المجال...

(2)انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس439/3

(3)انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس439/3

وتحته مطلبان:

ــ المطلب الأول: التعريف بــ:«محمد بن سعد»

ــ المطلب الثاني: جهوده في تدوين السيرة في كتابيه: «الطبقات الكبير» و«الطبقات الصغير».

المبحث الثاني: التعريف بــ«ابن حبان البستي» وجهوده في تدوين السيرة.

وفيه مطلبان:

ــ المطلب الأول: التعريف بــ «ابن حبان البستي»

ــ المطلب الثاني: جهوده في تدوين السيرة في كتابيه:«الثقات» و«مشاهير علماء الأمصار».

المبحث الثالث: التعريف بــ:«ابن الجوزي» وجهوده في تلخيص السيرة.

وفيها كذلك مطلبان:

ــ المطلب الأول: التعريف بــ«ابن الجوزي»

ــ المطلب الثاني: جهوده في تلخيص السيرة في كتابه:«صفة الصفوة».

ــ وخاتمة: وهي بمثابة تلخيص مركز على أهم ما تمحور حوله البحث.

منهج البحث:

لا يخفى أن مثل هذا البحث محكوم بقواعد وضوابط من أجل ذلك كان لابد من منهج يراعي ذلك:

فلأجله حاولت الاختصار والتركيز، والاستغناء عن الإطالة في التعريفات والتمهيدات، أو الاستطرادات الجانبية [(1)]، وإنما الهدف الأساس الذي وضعته بين عيني بيانُ مدى إسهام المصنفين في الطبقات في تدوين وكتابة السيرة الشريفة، وأثر جهودهم فيمن بعدهم من المؤلفين في السيرة.

ــ ومن أجله أيضا لم أذكر قائمة بكتب الطبقات سواء كانت عامة أو خاصة مطبوعة أو مخطوطة أو مفقودة ما دام أنها ليس فيها ما يتعلق بخدمة السيرة النبوية، وهو القصد الأول في البحث.

---

(1) كنت نبهت في مقدمة كتابي:«عبد الله بن سالم البصري (1049ــ1134هــ)؛شيخ المحدثين بالحرمين الشريفين» ص/25(ط2) على ضرر الاستطرادات والتمهيدات الطويلة التي صارت عادة في البحوث العلمية.

ـــ وقد حاولت أن أتتبع الدراسات والأبحاث المتعلقة بالموضوع؛ واستشهدت بما رأيته صوابا كما نبهت على ما رأيت فيه شططا أو جنفا.

ـــ كما وثقت الأحاديث والاقتباسات والآراء التي استشهدت بها في البحث.

هذا وأسأل الله التوفيق والسداد؛ وأن يستعملني في طاعته ومرضاته، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه

المبحث الأول: التعريف بـــ:«محمد بن سعد» وجهوده في تدوين السيرة.

المطلب الأول: التعريف بـــ:«محمد بن سعد»

لعله من المناسب قبل الحديث عن جهد ابن سعد في تدوين السيرة النبوية أن أسوق أولا نبذة عنه وهو محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله مولى بني هاشم وهو كاتب الواقدي [1]

يعتبر من كبار محدثي بغداد في عصره، تتلمذ على أكابر عصره الذين أدركهم من المحدثين أمثال: سفيان بن عيينة، وإسماعيل ابن علية، ومحمد بن أبي فُديك، ومعن بن عيسى، والوليد بن مسلم، وغيرهم لكنه اشتهر بتتلمذه عن المؤرخ القاضي محمد بن عمر الواقدي

ولذا قال عنه ابن خلكان:«صحب الواقدي المذكور قبله زمانا وكتب له فعرف به» [2].

ولم يزل يجتهد حتى حصل من العلم الشيء الكثير؛ فقد أثنى عليه بالمعرفة والحفظ كثير من النقاد والمؤرخين فقال عنه الخطيب البغدادي:«كان من أهل الفضل والعلم، وصنف كتابا كبيرا في طبقات الصحابة والتابعين والخالفين إلى وقته، فأجاد فيه وأحسن»[3]

وقال الخطيب أيضا:«محمد بن سعد عندنا من أهل العدالة وحديثه يدل على صدقه؛ فإنه يتحرى في كثير من رواياته».

وكذلك نوه بقدره الإمام الذهبي في عدد من كتبه فوصفه مرة بـــ«الحافظ، العلامة، الحجة»[4]

---

(1)انظر ترجمته في: كتابه الطبقات الكبير368/9، وتاريخ بغداد 266/3، والتقييد لابن نقطة ص/66، وتهذيب الكمال للمزي 255/25، وسير أعلام النبلاء للذهبي664/10

(2)انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان 351/4

(3)تاريخ بغداد 266/3

(4)انظر:سير أعلام النبلاء للذهبي664/10

بل عده ضمن النقاد المعتد بقولهم في الجرح والتعديل؛ فقال:«وكذا تكلم محمد بن سعد الحافظ في كتاب الطبقات له بكلام جيد مقبول»[1].

وهكذا عاش عمرا حافلا بالعلم والعطاء إلى أن توفي ببغداد سنة 230هـ عن 62 سنة، وقد أسهم ابن سعد بجهود عظيمة في خدمة علم الحديث والسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، كما يتجلى ذلك في كتابيه«الطبقات الكبير»، و«الطبقات الصغير»اللذين وصلا إلينا، ولذا سيدور الحديث عليهما في المبحث التالي.

المطلب الثاني: جهود ابن سعد في تدوين السيرة النبوية

وسأتناول ذلك من خلال ما وصلنا من تراثه؛ ويتجلى ذلك في كتابيه:

1ـ الطبقات الكبير:

لا خلاف في أن كتاب الطبقات الكبير لابن سعد أوسع وأعظم كتاب وصل إلينا في علم الطبقات إطلاقا كما أنه لا خلاف في كونه أقدم كتاب في الطبقات ـ مما وصلنا ـ تناول سيرة مفصلة للنبي ﷺ؛ وقد نوَّه بقيمته وأهميته كثير من الأئمة والمؤرخين؛ فقد قال عنه ابن الصلاح:«كتاب حفيل كثير الفوائد، وهو ثقة غير أنه كثير الرواية فيه عن الضعفاء؛ ومنهم الواقدي وهو محمد بن عمر الذي لا ينسبه» [2].

وبنحوه قال النووي:«وطبقات ابن سعد عظيم كثير الفوائد، وهو ثقة ولكنه كثير الرواية فيه عن الضعفاء، منهم شيخه محمد بن عمر الواقدي لا ينسبه» [3].

ووصفه السخاوي بأنه:«كتاب حفيل جليل كثير الفائدة» [4].

ولذا صار لزاما أن لا يذكر ابن سعد حتى يسبق إلى البال كتابه «الطبقات الكبير» الذي كان موضع استحسان، ومحط تنويه واهتمام من قبل العلماء على مر العصور؛ فإذا ما ذكر جهد المصنفين في الطبقات في كتابة السيرة النبوية كانت الإشارة إليه، والتعويل عليه.

وقد طبع الكتاب عدة طبعات، كانت الأولى منها على يد المستشرقين في ليدن سنة 1917هـ وجاءت في8 أجزاء، ثم تلاها الجزء التاسع الخاص بالفهارس سنة 1928هـ، وهي طبعة

---

(1)انظر: ذكر من يعتمد قوله في الجرح والتعديل ص/185

(2)انظر: علوم الحديث لابن الصلاح ص/398

(3)انظر: التقريب والتيسير للنووي ص/12

(4)انظر: فتح المغيث للسخاوي 503/4

ناقصة، وفيها أخطاء وتصحيفات، وكان علينا أن ننتظر زمانا طويلا حتى تصدر الطبعة الأخيرة منها سنة 2001م بتحقيق الدكتور علي عمر الذي بذل جهدا كبيرا في جمع مخطوطات الكتاب، وهي أكمل طبعة حتى الآن، وطبع فيما بين ذلك عدة طبعات أغلبها يكرر أخطاء طبعة المستشرقين، كما أخذت قطع من الكتاب في رسائل علمية بجامعة أم القرى والجامعة الإسلامية [(1)].

وقد حاول ابن سعد أن يقدم سيرة مكتملة للرسول الأعظم ﷺ، فلم يقتصر على بعض موضوعاتها، ولم يكتف ببعض مباحثها بل قدم صورة كاملة لا تقل عن كتابات أصحاب السير والمغازي الذين تصدوا لهذا الغرض أمثال محمد بن إسحاق، وموسى بن عقبة وأبي معشر المدني وغيرهم.

ولا يغتر بما وقع في الفهرست للنديم مما يفهم منه أن ابن سعد أفرد السيرة النبوية بكتاب خاص لأني وجدته ذكر له:[كتاب أخبار النبيﷺ] ثم ذكر عقبه:كتاب الطبقات الكبرى، ووصفه بأنه: «يحتوي على أخبار النبي ﷺ وطبقات الصحابة من أهل المدينة....» [(2)].

ولكن يلاحظ أن محقق الطبعة الجديدة من الفهرست وضع [كتاب أخبار النبي ﷺ] بين معقوفين مما يدل على كون العبارة مقحمة.

وقد اغتر بذلك بعض الدارسين مثل المستشرق يوسف هوروفتش حينما قال:«ويبدو أن هذه السيرة وحدها كتبها ابن سعد بالصورة التي شاعت بها فيما بعد، ورواها لتلاميذه ليرووها عنه؛ على حين حفظت «الطبقات» بصورتها المعروفة للمرة الأولى على يد الحسين بن فهم (211ـ289هـ) وجمع ابن معروف الكتابين في كتاب واحد تؤلف سيرة النبي ﷺ الجزء الأول منه حوالي عام 300هـ». [(3)]

وبنحوه يصرح الأستاذ عز الدين عمر موسى:«يبدو أن الطبقات الكبرى المطبوع الآن كان في الأصل كتابين جمعا في وقت لاحق في كتاب واحد كونت سيرة النبي ﷺ ـــ أو أخبار النبي

---

(1)فحقق « القسم المتمم لتابعي أهل المدينة ومن بعدهم» الدكتور زياد محمد منصور، مكتبة العلوم والحكم ـــ المدينة المنورة سنة: 1408هـــ ، وحقق[الطبقة الخامسة في من قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهم أحداث الأسنان] الدكتور محمد بن صامل السلمي، مكتبة الصديق ـــ الطائف سنة 1414 هـــ، وحقق[الطبقة الرابعة من الصحابة ممن أسلم عند فتح مكة وما بعد ذلك] الدكتور عبد العزيز عبد الله السلومي، مكتبة الصديق ـــ الطائف سنة: 1416 هـــ

(2)انظر: الفهرست للنديم (تـــ:فؤاد السيد)310/1

(3)انظر: المغازي الأولى ومؤلفوها ليوسف هوروفتش ص/127

ﷺ كما يسميها ابن النديم ـــ الجزأين الأول والثاني من المنشور، وطبقات الصحابة والتابعين الأجزاء من الثالث إلى الثامن». [1]

وهذا مذهب من الاجتهاد ضعيف؛ وليس برأي عند من مارس كتب التراث وتمرس بأساليب المؤلفين، ثم هذا التصرف إن صح من النديم في الفهرست أول ما نفيده منه أن ظاهرة تنتيف الكتب، والاكتفاء ببعض أجزاءها ظاهرة قديمة عند الوراقين والنساخ، ومنهم انتقلت العدوى إلى الناشرين المعاصرين.

وبالنسبة لهوروفتش أعجب من جرأته حين زعم أن ابن معروف وهو أحمد بن معروف بن بشر أبو الحسن الخشاب يروي عن الحارث بن أبي أسامة، والحسين بن فهم المتوفى سنة 321هـــ [2]

وهو بالفعل يروي الطبقات الكبرى عن الحارث بن أبي أسامة عن ابن سعد المصنف، ولكن لا يوجد أي دليل على أنه هو الذي جمع السيرة النبوية مع طبقات الصحابة ومن بعدهم في كتاب واحد، كما لا يوجد أي مستند يدل على أنهما في الأصل كانا كتابين، إنما هو محض تخرص وجرأة، ومجاراة لما وقع عند النديم في كتابه.

فهذا السخاوي يقول:«وفي أول الطبقات الكبرى لكاتبه...ابن سعد البغدادي سيرة مطولة»[3]

وعلى كل حال؛ فإن السيرة النبوية عند ابن سعد في الطبقات في الواقع شبه مفردة تأخذ من بداية الجزء الأول، ويبدأ بعنوان:«ذكر من انتمى إليه رسول الله ﷺ». ويستمر في سرد أحداثها حتى الجزء2 ص289 وفي نهاية ذلك تجد عبارة:«آخر خبر النبي ﷺ».

ولقد سلك ابن سعد في كتابه منهجا علميا أصيلا في معالجة موضوعات السيرة النبوية وإن بدا متأثرا بشيخه الواقدي في بعض الملامح، ويمكن أن نحدده في المنطلقات الآتية:

1 ـــ سلك فيه منهج مدرسة ابن إسحاق في دراسة السيرة حيث نجده يقدم للأحداث والأخبار بجمع أسانيده إليها ثم يعقب بقوله:«دخل حديث بعضهم في حديث بعض قالوا».

وكثيراً ما يفعل ذلك في أسانيد شيخه:«محمد بن عمر الواقدي».

---

(1)انظر: ابن سعد وطبقاته لعز الدين موسى ص/24

(2)انظر: تاريخ بغداد للخطيب 377/6

(3)انظر: الإلمام للسخاوي ص/30

ويرى بعض الدارسين أن ابن سعد يقف من الواقدي في فن المغازي بمترلة الواقدي نفسه من ابن إسحاق؛ لكن الفارق بينهما أن الواقدي لا يذكر ابن إسحاق أبدا، في حين نجد ابن سعد لا يخفي أن كتاب الواقدي أساس كتابه الخاص[1]

2ـــ وإذا كان مما يؤخد على ابن سعد كونه اعتمد كثيرا على شيخه الواقدي وهو ضعيف فإننا نجده لم يقتصر عليه هنا، بل استقى مادته من مصادر أخرى كثيرة، حيث أكثر الرواية عن نيف وستين شيخاً معظمهم من المحدثين الذين اهتموا بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسير الصحابة والتابعين، وهناك شيوخ آخرون، إلا أنه لم يكثر عنهم.

ويؤكد هذا الرأي الدكتور علي محمد عمر الذي حقق الطبقات الكبير بقوله:«ثمة اعتقاد سائد لدى بعض الباحثين أن كتابات ابن سعد في السيرة والمغازي وما بعدها من طبقات الصحابة والتابعين تكاد تكون صورة مماثلة لكتابات أستاذه الواقدي في هذه الشأن.

ولا ريب أن هذا الاعتقاد يخالف الحقيقة؛ لأن ابن سعد استقى مادته من مصادر أخرى كثيرة، و لم يقتصر على مادة الواقدي، بل قدم مادة واسعة عن رواة آخرين حتى يمكن القول بأن كتابات ابن سعد المأخوذة عن الواقدي تمثل أقل من نصف كتاب الطبقات الكبير»[2].

ومن أمثلة ذلك أنه ذكر سرِيَّتين لم يرد لهما ذكر عند الواقدي، وهما:

أولا: سرية عمرو بن أمية الضَّمري وسلَمة بن أسلم بن حريس إلى أبي سفيان بن حرب بمكة قبل غزوة الحديبية [3]

وهذه السرية ليس لها ذكر عند الواقدي في مغازيه، و لم يسند ابن سعد روايتها إلى أحد، فربما أخذها من بعض أئمة السير والمغازي، ويعتبر ابن سعد أقدم من ذكر هذه السرية [4].

ثانيا:سرية عكاشة بن محصن الأسدي إلى الغمر: غَمْر مرزوق، وهو ماء لبني أسد على ليلتين من فيد طريق الأول إلى المدينة [5]

وهذا الأمر من ابن سعد يدل على مزيد تهمم، وقوة اعتناء بتقصي أخبار النبي ﷺ ومغازيه، وبالتالي يعطي لكتابه من الأهمية والجدارة ما ليس لغيره.

---

(1)انظر: المغازي الأولى ومؤلفوها لهوروفتش ص/130

(2)انظر: الطبقات الكبير لابن سعد(تـــ:علي عمر) 6/1

(3)انظر: الطبقات الكبير لابن سعد 90/2

(4)انظر: الطبقات الكبير لابن سعد(تـــ:علي عمر) 8/1

(5)انظر: الطبقات الكبير لابن سعد 81/2

3ـــ يسوق الخبر الرئيس عن الغزوة؛ فيرويه عن مجموعة الرواة الذين ذكرهم في أول حديثه عن الغزوات ثم يكمل الحديث بروايات مفردة من مصادر متعددة، يسوقها بأسانيدها، وإذا عاد لرواية الجماعة يقدم ذلك بقوله: «قالوا... ».

4ـــ إذا بدأ في الحديث عن غزوة جديدة، فإنه لا يعيد الأسانيد مجموعة كما يفعل شيخه الواقدي، وإنما يعطف على الأسانيد السابقة بقوله:«ثم غزوة كذا... ».

وفي هذا من صنعة التأليف؛الاختصار،وتفادي التكرار؛ إذا لا داعي لإعادة الأسانيد كاملة ما دامت الغزوة التالية يرويها بالأسانيد السابقة نفسها.

5ـــ يظهر في طيات الكتاب الجهد الكبير الذي بذله ابن سعد في حشد الروايات، وتقصي الحقائق والمعلومات مع التزام الأمانة في العزو والإسناد سواء إلى الشيوخ أو الوثائق التي وقف عليها؛ فعلى سبيل المثال مبحث:«مرض النبي ﷺ ووفاته»[1]

يقول المستشرق هوروفتش:«وقد تعب ابن سعد تعبا شديدا في جمع الأخبار الخاصة بمرض النبي ﷺ ووفاته ويظهر الواقدي راويتَه هنا أيضا في أغلب الأحيان، ومن الواضح أن ابن سعد استخدم كتاب وفاة النبي ﷺ للواقدي، ولكنه وسعه توسيعا عظيما جدا»[2]

بل تفوق في بعض النواحي على ابن إسحاق الذي هو إمام أهل المغازي فقدَّم تفاصيل أوفى وأشمل كما تجده في الفصول الخاصة بأخلاق النبي ﷺ وعاداته، والخاصة برسائله وسفاراته إضافة إلى «مرض النبي ﷺ ووفاته» كما سبق[3]

6ـــ ومما يبرز جهد ابن سعد في هذا المجال؛ أنه لم يكن مجرد ناقل، وحاشد لأخبار السيرة النبوية من غير تدقيق ولا تحقيق، وإنما كان له في غضون ذلك لفتات وفي أتون هذا نظرات.

ومن تلكم النظرات والترجيحات قوله عندما ذكر رواية فيها أن النبي ﷺ بكى عند قبر أمه بمكة ثم قال: «وهذا غلط؛ وليس قبرها بمكة وقبرها بالأبواء» [4].

وهذا ليس فقط في ما يخص السيرة النبوية بل تجده في سائر الكتاب في طبقات الصحابة ومن بعدهم كذلك.

(1)انظر: الطبقات الكبير لابن سعد 183/2ـــ 277

(2)انظر: المغازي الأولى ومؤلفوها لهوروفتش ص/130

(3)انظر: المصدر السابق ص/128

(4)انظر: الطبقات الكبير لابن سعد 96/1

وفي هذا ما يرد قول هوروفتش:«ولم يأت ابن سعد في كتابه بملاحظات شخصية قط، وقلما يوجد قول دون الإشارة إلى المرجع الذي أخذه عنه فيما عدا بعض الأقوال المتصلة بالقصة»[1].

ــ تأثير ابن سعد فيمن بعده:

وقد كان لابن سعد تأثير بالغ في العلماء الذين كتبوا في السيرة النبوية من بعده في العصور اللاحقة؛ وصار كتابه مصدرا ثرا، ومنبعا غزيرا ينهلون منه، ويقتبسون من فوائده، وسأسرد جملة من أسماء أعلام السيرة، وممن كتب فيها ممن أشار إلى ابن سعد وممن صرح أنه رجع إلى ابن سعد، أو اعتمد عليه أو نقل منه:

ــ أبو القاسم ابن عساكر (تــ571هــ) في موسوعته«تاريخ دمشق» في مواضع عديدة[2]

ــ الحافظ عبد المؤمن الدمياطي (تــ705هــ) في كتابه:«المختصر في سيرة سيد البشر»، وقد نقل منه في أكثر من (80) موضعا [3]

وفي أحد المواضع ذكر الدمياطي أنه سمع كتاب ابن سعد في مدينة حلب على أبي الحجاج يوسف بن خليل الدمشقي، ثم ذكر إسناده إلى ابن سعد من رواية الحارث بن أبي أسامة عنه.

ــ الشهاب أحمد بن عبد الوهاب النويري(تــ733هــ) في كتابه «نهاية الأرب في فنون الأدب» في الأقسام التي خصصها للسيرة النبوية أكثر من النقل عنه بالحرف [4]

ــ أبو الفتح ابن سيد الناس (تــ734هــ) في كتابه:«عيون الأثر في فنون المغازي والسير»[5]

ــ أبو عبد الله ابن حُدَيْدَة الأنصاري (تــ783هــ) في كتابه:«المصباح المضي في كتب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض من عَرَبي وعجمي» نقل من كتاب ابن سعد في مواضع عديدة تربو على (56) موضعا [6]

ــ السخاوي في «الإلمام بختم سيرة ابن هشام» [7]. ووصفه بأنه سيرة مطولة.

---

(1)انظر: المغازي الأولى ومؤلفوها لهوروفتش ص/130

(2)انظر مثلا : تاريخ دمشق16/3، 52،56، 58 وهكذا دواليك.

(3)انظر:المختصر في سيرة سيد البشر للدمياطي92/1، و 537/2

(4)انظر:نهاية الأرب للنويري ــ مثلا ــ 77/16، 85، 87، 344 وج156/18ــ157،163

(5)انظر:عيون الأثر لابن سيد الناس414/2

(6)انظر:المصباح المضي لابن حُديدة 418/2

(7)انظر: الإلمام للسخاوي ص/30

وهذه نماذج يسيرة للتمثيل فقط، وإلا فقائمة المعتمدين على ابن سعد طويلة مما يبرز قيمة كتابة ابن سعد في السيرة النبوية التي لا جدال بشأنها.

ولذا يقول الأستاذ أسعد سالم تيم:«ومما يزيد من أهمية الكتاب أن مصنِّفَه ضم في أوله مصنَّفَه القيم في سيرة رسول الله ﷺ محررة متقنة في مجلد كبير؛فيه نفائس وفصول قيمة» (1)

ـــ الطبقات الصغير:

على عكس كتابه السابق لم يشتهر كتاب الطبقات الصغير كثيرا بين الناس، ومع ذلك نسبه إليه عدد من المؤرخين مثل النَّديم، وابن عساكر، وابن خَلِّكان والذهبي وغيرهم (2)

ورواه ابن خير الإشبيلي في الفهرست، ووصفه بأنه في ثلاثة أجزاء (3)

وقد كان يظن أنه مفقود حتى قام بنشره الدكتور بشار عواد معروف، ومحمد زاهد جول، ونشرته دار الغرب الإسلامي سنة 2009م.

وهذا الكتاب كما يدل عليه عنوانه صغير الحجم؛ بناه مؤلفه على الاختصار الشديد، فهو يكتفي فيه بسرد الأسماء، وذكر الوفيات في الأغلب الأعم كما لاحظ ذلك محققه (4)

ولأجل ذلك لم يكن من المنتظر أن يطيل في السيرة النبوية وسرد فصولها، وإنما ذكرته لأن فيه إشارات وتلميحات خفيفة إلى السيرة النبوية فهو مثلا يبتدئ بعنوان:«ذكر من كان يفتي بالمدينة ويقتدى به من أصحاب رسول الله ﷺ على عهد رسول الله ﷺ وبعد ذلك وإلى من انتهى علمهم» ثم يعقب ذلك بعنوان:«نسب رسول الله ﷺ ووفاته»، ثم «ذكر وفاة النبي ﷺ»، ثم «ذكر ولد رسول الله ﷺ» هكذا ترتيب العناوين الأربعة في الكتاب المنشور، ولكن عندي في هذا الترتيب بتقديم العنوان الأول نظر واضح ؛ لأنه من المألوف أن يستفتح أصحاب الطبقات بذكر النبي ﷺ ونسبه تيمنا وتبركا كما فعل ابن سعد نفسه في الطبقات الكبير ثم بعدما فرغ من السيرة النبوية انتقل إلى عنوان:«ذكر من كان يفتي بالمدينة ويقتدى به من أصحاب رسول الله ﷺ على عهد رسول الله ﷺ وبعد ذلك وإلى من انتهى علمهم»؛ لأن هذا الأخير يتعلق بالصحابة.

---

(1)انظر: علم طبقات المحدثين؛أهميته وفوائده ص/155

(2)انظر: الفهرست للنديم (تـــ:فؤاد السيد)310/1، وتاريخ دمشق لابن عساكر 108/48، ووفيات الأعيان لابن خلكان351/4، وتاريخ الإسلام للذهبي672/5

(3)انظر: الفهرست لابن خير (ط: دار الغرب الإسلامي) ص/ رقم (411)

(4)انظر: الطبقات الصغير18/1

ثم هذا مخالف لمنطق الترتيب الزمني الملحوظ في تصنيف الطبقات؛لأنها تقدم النبي صلى الله عليه وسلم في الذكر على الصحابة ثم الصحابة على التابعين وهكذا دواليك.وبناء على هذا أظن أن تقديم العنوان المذكور من فعل النساخ.

والمهم أن ابن سعد في طبقاته الصغير لم يُخْله مع صغر حجمه من قبس من السيرة النبوية المباركة مما يعكس أهمية السيرة النبوية في بناء هيكل الطبقات، وأنها بمثابة الأساس الذي لا يقوم بدونه.

المبحث الثاني: التعريف بــ« ابن حبان» وجهوده في تدوين السيرة.

وفيه مطلبان:

ــ المطلب الأول: التعريف بــ الحافظ ابن حبان البستي

قبل الحديث عن جهد ابن حبان في تدوين السيرة النبوية أجد من المناسب أن ألمح في إيجاز شديد إلى نبذة عنه فهو محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد أبو حاتم التميمي البستي (تــ354هــ)

وصفه تلميذه الحاكم أبو عبد الله بقوله:«وكان من أوعية العلم فى اللغة والفقه والحديث والوعظ، ومن عقلاء الرجال» [1].

وله تصانيف عديدة في علم الحديث والرجال منها كتابه الصحيح:«التقاسيم والأنواع»، و«كتاب المجروحين من المحدثين»، و«كتاب مشاهير علماء الأمصار»، و«كتاب الثقات»، وكلها مطبوعة متداولة.

وابن حبان في الحقيقة شخصية فذة، كان بالإضافة إلى تبحره في الحديث محيطا بمعارف وعلوم أخرى مثل الفلسفة والطب والأدب وغير ذلك؛ وقد امتحن في حياته بسبب إطلاقه بعض الكلمات الموهمة.

ــ المطلب الثاني: جهوده في تدوين السيرة من خلال كتابيه:«الثقات»و:«مشاهير علماء الأمصار».

وسيكون الحديث عنها من خلال كتابيه:

---

(1)انظر: إنباه الرواة للقفطي122/3، والتقييد لابن نقطة ص/64، وسير أعلام النبلاء 92/16

أولا: كتاب الثقات

بداءة قد يستغرب من لم يمارس «علم الرجال» إدراج كتاب الثقات ضمن أصحاب الطبقات؛ لأن اسم الكتاب لا يشير إلى ذكر لفظ «الطبقات» أصلا؛ ولكن الكتاب في الواقع مرتب على الطبقات، وسائر على منوالهم ولا يضيره أن لم يرد ذلك في عنوانه، ولاسيما أن السخاوي وصفه بأنه «أحفلها وهي على الطبقات» [1]، وهذا ليس بغريب إذا علمنا أن كتاب معرفة الثقات لأحمد بن عبد الله العجلي(تــ261هــ) السابق عليه في التأليف كان مرتبا على الطبقات في الأصل أيضا [2].

ومن أجل ذلك أدرجته هنا ضمن أصحاب الطبقات وإسهامهم في السيرة النبوية.

ويعتبر كتاب ابن حبان من أوسع كتب الثقات التي وصلت إلينا فيقع المطبوع في 9 مجلدات، وصدر عن دائرة المعارف العثمانية بالهند سنة1393هــ تحت مراقبة: الدكتور محمد عبد المعيد خان، والحقيقة أن الكتاب ما زال بحاجة إلى تحقيق وعناية من لدن عالم خبير ذي أهلية؛ لأني رأيت فيه إقحاما في بعض المواضع [3].

يقول في مقدمة الكتاب ــ بعد أن ذكر أنه سيملي في ذكر من حمل عنه العلم كتابين: كتاباً يذكر فيه الثقات من المحدثين، وكتاباً يبيِّن فيه الضعفاء والمتروكين، وسيبدأ بالثقات، فيذكر ما كانوا عليه في الحالات.

ثم قال:«فأول ما أبدأ في كتابنا هذا ذكر المصطفى صلى الله عليه وسلم، ومولده، ومبعثه، وهجرته إلى أن قبضه الله تعالى إلى جنَّته.

ثم نذكر بعده الخلفاء الراشدين المهديين بأيامهم إلى أن قتل عليٌّ رضي الله عنه.

ثم نذكر صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم واحداً واحداً على المعجم إذ هم خير الناس قرناً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم نذكر بعدهم التابعين الذين شافهوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأقاليم كلها على المعجم إذ هم خير الناس بعد الصحابة قرنا، ثم نذكر القرن الثالث الذين رأوا التابعين؛ فأذكرهم على نحو ما ذكرنا الطبقتين الأوليين، ثم نذكر القرن الرابع الذين رأوا أتباع التابعين على سبيل من قبلهم، وهذا القرن ينتهي إلى زماننا هذا».[4]

---

(1) الإعلان بالتوبيخ للسخاوي ص/217

(2)انظر:الثقات لابن حبان42/1

(3)انظر:بحوث في تاريخ السنة المشرفة لأكرم العمري ص/118

(4)انظر: الثقات لابن حبان10/1

وهكذا بين ابن حبان خطته العامة في كتابه، ومفهوم الطبقة عنده الذي يعني (الجيل)، وأنه رتب الكتاب على الطبقات، ورتب الطبقات على حروف المعجم كما نص أنه سيبدأ بالسيرة النبوية وقد وفى بوعده فخصص للسيرة النبوية المجلد الأول كاملا، والمجلد الثاني إلى ص/145 من المطبوع.

ومن أبرز ما ميز منهجه في كتابة السيرة:

ــ وطأ لكتابه بخطبته بليغة كعادته بين فيها مقصده من كتابه ثم عقبه بثلاث عناوين؛هي:«ذكر الحث على لزوم سنن المصطفى صلى الله عليه وسلم » و«ذكر الحث على نشر العلم؛إذ هو من خير ما يخلف المرء بعده» و«ذكر الخبر الدال على استحباب حفظ تاريخ المحدثين» [1]

فهذه ثلاث مباحث جعلها كالمقدمة الممهدة للكتاب؛ ثم شرع في السيرة النبوية رأسا فبدأ بعنوان:«ذكر مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم».[2] ثم استعرض السيرة النبوية بداية بالعهد المكي ثم العهد المدني إلى أن وقف عند:«ذكر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم». ثم عقب بعنوان:«ذكر وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم ».[3]

ومن هنا ندرك أن ابن حبان كان له لمساته الخاصة ونظراته الشخصية في معالجة أحداث السيرة؛ فإذا كان بعض أصحاب الطبقات كابن سعد وغيره يفتتحون بالنسب الشريف أو بذكر من انتمى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن ابن حبان افتتح بالمولد الشريف واختتم بالوفاة؛ وفي صنعه هذا من اللطافة والمشاكلة ما فيه.

ــ على الرغم من كون المنهج العام عنده مراعاة الاختصار إلا أنه يتعرض للاختلاف، وذكر الأقوال كما تراه في عرضه لنسب النبي صلى الله عليه وسلم من فوق عدنان إلى آدم [4] فطابع الاختصار ليسا دائما.

ــ وفي الكتاب نفس حديثي ظاهر؛ فتجد ابن حبان ينتهز الفرصة ــ كلما سنحت ليبدي فوائد حديثية مما يدل على حفظه وإمامته.

فهو يوشح الكتاب بأسانيده عن شيوخه الذين أخذ عنهم بين الفينة والأخرى أمثال:

---

(1)انظر: الثقات لابن حبان1/4ــ9

(2)انظر: الثقات لابن حبان1/14

(3)انظر: الثقات لابن حبان2/129و2/145

(4)انظر: الثقات لابن حبان1/23

ـــ الحسن بن سفيان النسوي عن أبي بكر ابن أبي شيبة صاحب كتاب (المغازي)42/1

ـــ عمر بن سعيد بن سنان الطائي المنبجي 47/1

ـــ محمد بن الحسن بن قتيبة العسقلاني 48/2

ـــ الحسن بن عبد الله بن يزيد القطان 80/1

ـــ محمد بن إسحاق بن خزيمة صاحب الصحيح 114/2

ـــ أبو يعلى أحمد بن علي الموصلي صاحب المسند 99/1

وهذه نماذج فقط من شيوخه المحدثين الذين استفاد منهم في كتابه، وإلا فعددهم أكثر من هذا.

ـــ وكذلك ظاهر في عناوين موضوعاته مثل«صفة بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ »[1] بل يتحرى رواية أهل الحديث فيما يخص الأحاديث المرتبطة بأحداث السيرة النبوية [2]

كما أنه يحاول الجمع والتوفيق بين الخبرين إذا أوْهَما الاختلاف والتعارض؛ كما فعل في حديثي بدء الوحي عن عائشة، وحديث جابر ـــ رضي الله عنهما ـــ عندما قال:«هذان خبران أوهَما من لم يكن الحديث صناعته أنهما متضادان وليس كذلك إن الله عز وجل بعث رسوله ﷺ يوم الاثنين وهو ابن أربعين سنة ونزل عليه جبريل وهو في الغار بحراء بـــ {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1)} [العلق: 1] فلما رجع رسول الله ﷺ إلى بيت خديجة ودثروه أنزل الله عليه في بيت خديجة: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) } [المدثر: 1 - 4] من غير أن يكون بين الخبرين تضاد ولا تهاتر».[3]

ـــ ومما يلحظه الناظر أن ابن حبان لا يكاد يسمي أصحاب السير والمغازي الذين سبقوه أمثال موسى بن عقبة، وأبي معشر السندي، ومحمد بن عمر الواقدي، ومحمد بن سعد كاتب الواقدي، إلا أنه حينما يسند أحيانا يسند من طريق الزهري، وأحيانا من طريق الوليد بن مسلم عن الأوزاعي وغيرهما وهما من رجالات السيرة النبوية.

نعم، وجدته في موضعين:

---

(1)انظر: الثقات لابن حبان48/1

(2)انظر: الثقات لابن حبان(مولد رسول الله)14/1، و(تسمية من شهد بدرا)182/1 و213/1(السنة الثالثة من الهجرة)

(3)انظر: الثقات لابن حبان52/1

ـــ«بيعة العقبة الأولى»، و«إسلام سلمان الفارسي» يروي عن محمد بن أحمد بن أبي عوان الرازي عن عمار بن الحسن عن سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق صاحب السيرة [1]

وهذا يعني قطعا أن ابن حبان سمع سيرة ابن إسحاق ووقف عليها؛ لأن سلمة بن الفضل المذكور هو الأبرش الرازي أحد رواة سيرة ابن إسحاق [2]

ولكنه لم يسمه في المواضع الأخرى ؛ فلعل مرد ذلك إلى أن ابن حبان أملى كتابه إملاء كما سبقت الإشارة إليه من جهة، ومن جهة ثانية قصد الاختصار وعدم التطويل، فلهذا السبب لم يسم من سبقوه من رجال السيرة.

ـــ ويبدو لي أن ابن حبان استفاد من مصنفاته الأخرى ولا سيما كتابه الصحيح المسمى:«المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع»، ولا سيما القسم الخامس منه المخصص لـــ«لأفعال التي انفرد بها النبي»، وقد تصفحته ـــ في طبعته الجديدة [3] ـــ فألفيته بالفعل يحتوي على مادة طيبة من السيرة الشريفة مثلا ج660/7«كِتْبَتُه ﷺ الكتب إلى المواضع بما فيها من الأحكام والأوامر وهي ضرب من الأفعال»، و667/7:«هجرته ﷺ إلى المدينة»، و711/7«أخلاق الرسول ﷺ وشمائله في أيامه ولياله»، و742/7:« علة رسول الله ﷺ التي قبض فيها وكيفية أحواله في تلك العلة»،و769/7:«وصف رسول الله ﷺ وسنه»، و757/7:«وفاة رسول الله ﷺ وتكفينه ودفنه».

وهذا المباحث الستة كلها تعرض لها في السيرة ضمن كتابه«الثقات»، ولكن باختصار، وتارة من غير إسناد، بينما هي في صحيحه مسندة كلها.

ـــ وأخيرا أقول:لقد تميز ابن حبان بجودة عرضه، وحسن سياقه للسيرة سياقا حسنا مشوقا متصلا ليس فيه استطراد يبلبل الذهن، ولا إخلال بشيء من المهمات وهذا يدل على توفر ابن حبان على حفظ السيرة، واستحضاره القوي لموضوعاتها، ولهذا أجدني أتعجب كيف ساغ لأحد الباحثين أن يقول عن ابن حبان:«أما مبحث السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي اللذين شغلا المجلدين الأولين

---

(1)انظر: الثقات لابن حبان93/1، و249/1

(2)انظر: الإلمام في ختم سيرة ابن هشام للسخاوي ص/32

(3)وهذه الطبعة جاءت وفق الترتيب الذي وضعه ابن حبان نفسه، والتقسيم الذي قسم به السنن. وهي من نشر: دار ابن حزم بيروت سنة 1433هـــ بتحقيق: محمد علي سونمز، وخالص آي دمير.

فلا فائدة فيهما بمرة! إذ اختصر ابن حبان الأسانيد وخلط الغث بالسمين والصحيح بالمنكر، وشتان بين ما كتبه ابن سعد في مقدمة كتابه، وبين ما كتبه أبو حاتم إمام الأئمة»[1].

وهذا كلام مبالغ فيه فما هي هذه المناكير التي أوردها ابن حبان ولم يوردها ابن سعد ولا غيره؟ وكيف يكون قرابة مجلدين من تصنيف هذا الحافظ الجهبذ الناقد خاليين تماما من أي فائدة، وهذا والله هو التجني والتطاول على الأئمة.

على أن واقع الكتاب يكذب هذا القول؛ وعلى سبيل المثال استوقفني إيراد ابن حبان لحديث أبي ذر الطويل الذي سأل فيه النبي ﷺ عدة أسئلة؛ أورده في السنة العاشرة من الهجرة بعد ذكر الوفود على النبي ﷺ، وقد أخرجه هو نفسه في صحيحه [2] وهذا الحديث لم يذكره أحد من أصحاب السير ــ فيما علمت ــ في كتب السيرة النبوية ثم راجعت رواية الحديث في كتب السنة التي أخرجته فلم أر فيه ذكرا لتاريخ معين لوروده سواء العاشرة أو غيرها؛ فكيف عرف ابن حبان أن هذه القصة كانت في السنة العاشرة؟

ألا يكفي هذا من فوائد ابن حبان.

والكتاب كما قال أستاذنا الدكتور فاروق حمادة عنه:«كتاب جيد محرر مختصر يسوق في بداية الحدث إسنادا ثم يستغني عن الأسانيد، وقد رتبه على السنين، وأدخل فيه معلومات جيدة عن أحداث ووقائع لها ارتباط بالمجتمع الإسلامي، وتاريخ تشريع الأحكام، واستشارة الصحابة للنبي ﷺ في قضاياهم، ولا يخلو من نقد»[3]

ثانيا: مشاهير علماء الأمصار

وإذ فرغت من الكلام على الكتاب الكبير لابن حبان أعرج بعده على الكتاب الصغير على غرار ما صنعت في ابن سعد، وهذا الكتاب من ابن حبان هو كتاب مختصر منتزع في غالب الظن

---

(1)انظر: علم طبقات المحدثين للمهندس أسعد سالم تيم ص/161

(2)رواه ابن حبان كما في الإحسان لابن بلبان 76/2 (361)، والبزار في مسنده 426/9(4034) والطبراني في المعجم الكبير157/2 (1651) ــ ومن طريقه ابن الشجري في ترتيب الأمالي الخميسية للشجري (1/ 97(372) ، والحاكم في المستدرك على الصحيحين 652/2(4166) والبيهقي في السنن4/9 ، وابن بشران في أماليه ص/ 288(1528)

ورواه ابن عدي في الكامل 2699/7، وابن سمعون الواعظ في أماليه ــ مختصرا ــ ص/216(208) وأبو نعيم في الحلية166/1.

وروى بعضهم جملا منه مثل: ابن ماجه في السنن (2/ 1410(4218) وابن شاهين في الترغيب في فضائل الأعمال (ص: 85(262) والقضاعي في مسند الشهاب 39/2(837) والبيهقي في شعب الإيمان 357/6 (4325) – وراجع: تفسير ابن كثير (تــحقيق:سامي سلامة) 471/2، وسلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني320/12(5639)و1248/14(7138)

(3)انظر: مصادر السيرة وتقويمها لفاروق حمادة ص/85

من كتابه«الثقات» وهو صغير الحجم يقع في مجلد، قصد به المؤلف إلى ذكر أشهر علماء الأمصار الإسلامية مثل الحجاز والعراق واليمن والشام ومصر ونيسابور.

وقد بدأ بالمدينة المنورة «لأنها مهبط الوحي ومعدن الرسالة وبها نصر المصطفى صلى الله عليه وسلم كثيرا ومنها انتشر الإسلام وظهر أعلام الدين وبها قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وضجيعيه أبي بكر وعمر رضهما واتاها [كذا] قطن جلة الصحابة أجمعين الذين هم منار الإسلام وبهم صان الله دينه عن الانثلام».

ثم قال:«وأول ما نبدأ من هذا الكتاب بذكر النبي صلى الله عليه وسلم»[1].

ثم ذكر لمحة سريعة مقتضبة جدا من سيرة الله صلى الله عليه وسلم في أقل من صفحة؛ لخص فيها نسبه ومولده وبعثته وهجرته ووفاته ومدفنه، وهذا الصنيع يشبه صنيع ابن سعد في الطبقات الصغير، ولكنه أجمل سياقا، وأحسن اتساقا، وأهم ما يعنيه أنه لم يجد مساغا من أن يعطر هذا الكتيب الصغير الحجم بقبس من أنوار السيرة الشريفة تيمنا وتبركا بالقليل إن لم يمكن الكثير.

المبحث الثالث: التعريف بـــ:«ابن الجوزي» وجهوده في تلخيص السيرة.

وفيه كذلك مطلبان:

ــ المطلب الأول: التعريف بـــ ابن الجوزي [2]

وشهرته تغني عن التعريف به لكن لابد من نبذة يسيرة عنه فهو شيخ الإسلام، ومفخر العراق جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمان بن علي عبد الرحمان ابن الجوزي القُرشي البغدادي الحنبلي ينتهي نسبه إلى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بكر الصديق،الإمام، العلامة، الحافظ، المفسر، المؤرخ الواعظ الزاهد، صاحب التصانيف العديدة المفيدة في الفنون منها:«المنتظم» في التاريخ، «وصيد الخاطر» في الأدب، و«زاد المسير» في التفسير، وكتاب«الموضوعات»، «كشف المشكل من أحاديث الصحيحين» وغيرها من المؤلفات الكثيرة.

قال عنه الذهبي:«وكان رأسا في التذكير بلا مدافعة، يقول النظم الرائق، والنثر الفائق بديها، ويسهب، ويعجب، ويطرب، ويطنب، لم يأت قبله ولا بعده مثله، فهو حامل لواء الوعظ، والقيم بفنونه، مع الشكل الحسن، والصوت الطيب، والوقع في النفوس، وحسن السيرة».

ولد سنة (509 أو 510هـ) وتوفي سنة (597هـ)

(1)مشاهير علماء الأمصار لابن حبان ص/21

(2)انظر ترجمته في: وفيات الأعيان لابن خلكان140/3، وسير أعلام النبلاء 365/21 ، وتذكرة الحفاظ للذهبي 133/4

ـــ المطلب الثاني: جهوده في تلخيص السيرة في كتابه:«صفة الصفوة».

يرتبط هذا الكتاب ـــ وهو من الكتب المهمة التي صنفها ابن الجوزي ـــ بكتاب «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني(تـــ430هــ) وهو كتاب نفيس مشهور متداول جمع فيه كثيرا من أخبار الصالحين من السلف ومن بعدهم.

ولما اطلع ابن الجوزي على الكتاب أعجبه، ولكنه أخذ عليه مآخذ عدة، منها:

أنه خلط في ترتيب القوم فقدم من ينبغي أن يؤخر، وأخر من ينبغي أن يقدم، صنع ذلك في الصحابة ومن بعدهم، فلم يرتبهم لا على الفضائل ولا على المواليد، ولا على البلدان، ولا سيما في أواخر الكتاب [1]

وهذا صحيح ملاحظ في الكتاب، ولذا حاول من جانبه أن يرتب الكتاب ترتيبا لائقا فقال:«أنا أبتدئ ـــ بتوفيق الله سبحانه ـــ ومعونته فأذكر باباً في فضل الأولياء الصالحين، ثم أردفه بذكر نبينا محمد ﷺ وشرح أحواله وآدابه وما يتعلق به، ثم أذكر المشتهرين من أصحابه بالعلم المقترن بالزهد والتعبد، وآتي بهم على طبقاتهم في الفضل ثم أذكر المصطفيات من الصحابيات على ذلك القانون، ثم أذكر التابعين ومَن بعدهم على طبقاتهم في بلدانهم»[2].

فكتابه مرتب على البلدان ثم رتب أهل كل بلد على الطبقات، يقدم الرجال ثم النساء وهكذا...

ومما أخذه على أبي نعيم أيضا وهو الشاهد عندي أنه لم يذكر فيه أي شيء من سيرة النبي ﷺ، وهذا لا يليق في نظر ابن الجوزي؛ إذ قال:«وأما الأشياء التي فاتته فأهمها ثلاثة أشياء: أحدها أنه لم يذكر سيد الزهاد وإمام الكل، وقدوة الخلق، وهو نبينا محمد ﷺ فإنه المتبع طريقه المقتدى بحاله» [3].

ولذا فقد حرص هو من جانبه أن يفتتح كتابه«صفة الصفوة» بالسيرة الشريفة فقال:«ولما سميت كتابي هذا «صفة الصفوة» رأيت أن أفتتحه بذكر نبينا محمد ﷺ فإنه صفوة الخلق، وقدوة العالم»[4]

---

(1)انظر: صفة الصفوة لابن الجوزي 11/1

(2)انظر: صفة الصفوة لابن الجوزي 12/1

(3)انظر: صفة الصفوة لابن الجوزي 11/1

(4)انظر: صفة الصفوة لابن الجوزي 12/1

ولكنه اعتذر في المقابل عن سير الأنبياء السابقين لأن قصده البحث عن مجال الاقتداء والتأسي، وهذا متعذر بالنسبة إليهم.

وإذا تأملنا جهده في كتابة السيرة فإنا نجده بناه على التلخيص غير المخل، والاقتصار على المعارف الضرورية، والنقاط المضيئة ؛ فليس عنده أسانيد مطولة بل يكتفي بالصحابي ليعرف به مخرج الحديث؛ وقد استعرض جميع أبواب السيرة النبوية فبدأ «باب ذكر نبينا محمد ﷺ وذكر نسبه».[1]

وظاهر في كتابته النفس الحديثي فتراه يحرص على أن يميز الحديث المخرج في الصحيحين من غيره، وكثيرا ما ينص على كونه من أفراد مسلم على البخاري أو أفراد البخاري على مسلم مثلا [2]

وقد اعتمد على ابن سعد صاحب الطبقات في مواضع عديدة [3]

وقد أخذت السيرة الشريفة من بداية الكتاب إلى ص/70 وتنتهي بعبارة:«آخر المتعلق بأخبار نبينا محمد ﷺ».

فلا تأخذ السيرة النبوية عنده شيئا كثيرا من حجم الكتاب مقارنة بابن سعد وابـــن حبـــان، وذلك لأنه لخصها وهذبها، وركز على مواطن الاقتداء والتأسي، وإبراز الشمائل النبوية الـــشريفة، ولأنه كذلك أعرض عن ذكر المغازي والسرايا والبعوث وقدرها قد يقارب النصف من السيرة عند أصحاب السير.

وبالجملة فقد نجح ابن الجوزي في إعطاء معلومات قيمة، وصفحات مشرقة، ومواقف مضيئة من حياة الرسول فيها أسوة وقدوة لكل مسلم ينشد طريق الخير والصلاح فهو مثلا عنوان:«ذكر عبادة رسول الله واجتهاده ﷺ » و«ذكر عيشه وفقره ﷺ » ونحوها مما يشحذ الهمم، ويقوي العزائم.

خاتمة البحث:

وبعد فقد كنت أؤمل أن أسترسل في الحديث عن أصحاب الطبقات الذين تناولوا السيرة السيرة في مصنفاتهم في العصور التالية ولا سيما في القرن الثامن مثل الحافظ الذهبي في «تاريخ الإسلام» إلا أن ذلك يستدعي وقتا وجهدا...

---

(1)انظر: صفة الصفوة لابن الجوزي 16/1

(2)انظر: صفة الصفوة لابن الجوزي 22/1

(3)انظر: صفة الصفوة لابن الجوزي 22/1و28/1 و32/1

ومهما كان الأمر، فقد تهيأ لنا الحديث عن الأئمة المؤسسين من أصحاب الطبقات لتدوين السيرة النبوية، والذين تعتبر كتاباتهم مركزية ومحورية لا يستغنى عنها بحال من الأحوال وعلى رأسهم الإمام ابن سعد في طبقاته والذي أفرد بدراسات عدة شرقية وغربية إلا أنه مما يُؤْسِف بحق أن نصوصه لم تخدم خدمة جديرة بالثقة والاعتماد؛ بضبط النص ضبطا يوثق به، ثم خدمة نصوصه ومقارنتها خدمة يطئمن إليها، ولذا يوصي الباحث بإعادة تحقيق الكتاب ولا سيما السيرة الشريفة.

وإذا كان ابن سعد حظي بدراسات عدة فإن تاليه الذي هو أبو حاتم ابن حبان لم يلق حظه من الدراسة ـــ أعني جهده في السيرة النبوية خاصة ـــ ولذا كان على البحث أن يسد شيئا من هذا الفراغ، وأن يجلى بعض لمساته، ولطائف تصرفه، كما حاول الذب عنه بعض السهام ممن تهجم عليه وادعى أنه لا فائدة من كتابه بالمرة.

كما اتضح من البحث أن جهود أصحاب الطبقات في كتابة السيرة كان لها أثر بعيد على المصنفين في السيرة النبوية ـــ ولا سيما ابن سعد ـــ في العصور اللاحقة كما يعكس ذلك الاقتباسات الكثيرة عنهم.

هذا وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

أهم مصادر البحث:

1. كتاب ابن سعد (168ـــ230هـ) منهجه، وموارده في الطبقات الكبرى، لمحمد بن صالح السامرائي، دار عماد الدين للنشر والتوزيع سنة 1430هـ
2. ـــ ابن سعد وطبقاته لعز الدين عمر موسى، دار الغرب الإسلامي بيروت سنة 1407هـ
3. الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، لعلي بن بلبان الفارسي(تـ739هـ) تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة بيروت، ط1، 1408هـ.
4. الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني (تـ852هـ) مركز هجر للبحوث والدراسات إشراف: عبد الله التركي، القاهرة سنة 1429هـ
5. الأعلام: لخير الدين الزِّركلي (تـ1396هـ) دار العلم للملايين بيروت ط15، 2002م
6. الإلمام في ختم سيرة ابن هشام لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي(تـ902هـ) تـ: الحسين الحدادي، دار البشائر الإسلامية بيروت 1424هـ

7.بغية الملتمس لأحمد بن يحيى ابن عميرة الضبي (تـ599هـ) دار الكاتب العربي القاهرة سنة 1967م

8.تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس لأبي الوليد عبد الله بن محمد ابن الفرضي (تـ403هـ) تـ: السيد عزت العطار الحسيني مكتبة الخانجي القاهرة ط2، 1408هـ

9.ـ تاريخ مدينة السلام (بغداد) لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب (تـ463هـ) تـ: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي ط1، 1422هـ

10.تذكرة الحفاظ لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي(تـ748هـ)، دائرة المعارف العثمانية بالهند، تصوير دار إحياء التراث العربي.

11.التكملة لكتاب الصلة لمحمد بن عبد الله ابن الأبار (تـ658هـ) تـ: عبد السلام الهراس، دار الفكر بيروت ط1، 1415هـ

12.ـ الثقات لابن حبان البستي (تـ354هـ) طبع مجلس دائرة المعارف العثمانية بالهند تحت إشراف: محمد عبد المعيد خان سنة 1373هـ.

13.الجواهر والدرر في ترجمة ابن حجر لمحمد بن عبد الرحمن السخاوي (902هـ) تـ: إبراهيم باجس دار ابن حزم للنشر والتوزيع بيروت.

14.الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة لمحمد بن جعفر الكتاني (تـ1345هـ) ت: محمد المنتصر الكتاني، دار البشائر الإسلامية بيروت ط4، 1406هـ

15.سير أعلام النبلاء للذهبي تـ:شعيب الأرناؤط وبشار عواد معروف مؤسسة الرسالة بيروت ط2، 1402هـ 1405هـ

16.صفة الصفوة لأبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي(تـ597هـ) تـ: طارق محمد المنعم، دار ابن خلدون د.ت

17.الصلة في تاريخ علماء الأندلس، لأبي القاسم خلف بن عبد الملك ابن بشكوال (578هـ) تـ: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي بيروت ط1، 1431هـ

18.الطبقات الصغير لمحمد بن سعد كاتب الواقدي (تـ230هـ) تـ: بشار عواد معروف، ومحمد زاهد جول، دار الغرب الإسلامي بيروت سنة 2009م

19.طبقات القراء لمحمد بن أحمد الذهبي(تــ748هــ) تـــ: أحمد خان، نشر مركز الملك فيصل الرياض ط1، 1418هــ

20.علم طبقات المحدثين أهميته وفوائده لأسعد سالم تيم، مكتبة الرشد الرياض سنة 1415هــ

21.علوم الحديث، لأبي عمرو: عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري ابن الصلاح(تــ643هــ) تـــ: نور الدين عتر، نشر: دار الفكر دمشق، 1406هــ.

22.فتح المغيث بشرح ألفية الحديث لمحمد بن عبد الرحمن السخاوي(تــ902هــ) تـــ: عبد الكريم الخضير، وصاحبه، مكتبة المنهاج بالرياض ط1، 1426هــ

23.ــ الفهرست لمحمد بن إسحاق النديم (تــ380هــ) تـــ:أيمن فؤاد سيد مؤسسة الفرقان لندن سنة 1430هــ

24.اللطائف من دقائق المعارف لمحمد بن عمر الأصبهاني أبو موسى المديني (تـــ 581هــ) تـــ: محمد علي سمك، دار الكتب العلمية بيروت 1420 هــ

25.المختصر في سيرة سيد البشر لعبد المؤمن الدمياطي (تــ705هــ) تـــ: محمد الأمين الجكني، نشر: السيد حبيب محمود أحمد، المدينة المنورة سنة 1416هــ.

26.مشاهير علماء الأمصار لأبي حاتم ابن حبان (تــ354هــ) تـــ: فلايشهمر دار الكتب العلمية بيروت سنة 1959م

27.مصادر السيرة النبوية وتقويمها لفاروق حمادة، دار القلم دمشق ط3، سنة 1424هــ

28.مصادر السيرة النبوية بين المحدثين والمؤرخين لعبد الرزاق هرماس«بحث مقدم لجائز الأمير نايف آل سعود» ط1، 1428هــ

29.المصباح المضي في كتاب النبي ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي لأبي عبد الله محمد بن علي بن حُدَيدة (تــ783هــ) تـــ: محمد عظيم الدين، نشر عالم الكتب بيروت ط2، 1405هــ

30.معجم الأدباء لياقوت بن عبد الله الحموي الرومي (تـــ 626هــ) تـــ: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي ط1، 1993م

31.المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع، محمد عيسى صالحية، معهد المخطوطات القاهرة سنة 1995م

32.معجم المطبوعات العربية والمعربة ليوسف إليان سركيس الدمشقي (1351هـ) تصوير دار صادر عن الطبعة المصرية سنة 1346هـ

33.المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة تركيا.

34.المغازي الأولى ومؤلفوها ليوسف هوروفتش تـرجمة:حسين نصار، مكتبة البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة 1369هـ.

35.منهج ابن سعد في نقد الرواة من خلال كتابه الطبقات الكبرى، رسالة دكتوراه من إعداد: محمد بن أحمد الأزوري، بمقدمة لكلية أصول الدين بجامعة أم القرى سنة 1422هـ

36.هدية العارفين بأسماء المؤلفين وآثار المصنفين لإسماعيل باشا البغدادي البابابي(1339 هـ) دار الفكر بيروت 1402هـ

37.الوافي بالوفيات، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي(تـ 764هـ) نشر س.ديد رينغ وجماعة آخرين سنة 1394هـ

فهرس الموضوعات

مقدمة

ـــ المطلب الأول: التعريف بـــ:«محمد بن سعد»

المطلب الثاني: جهود ابن سعد في تدوين السيرة النبوية

ـــ الطبقات الكبير

ـــ تأثير ابن سعد فيمن بعده

المبحث الثاني: التعريف بـــ« ابن حبان» وجهوده في تدوين السيرة.

ـــ المطلب الأول: التعريف الحافظ ابن حبان البستي

ـــ المطلب الثاني: جهوده في تدوين السيرة من خلال كتابيه:«الثقات»و:«مشاهير علماء الأمصار».

أولا: كتاب الثقات

ثانيا: مشاهير علماء الأمصار

المبحث الثالث: التعريف بـــ:«ابن الجوزي» وجهوده في تلخيص السيرة

ـــ المطلب الأول: التعريف بـــ ابن الجوزي

ـــ المطلب الثاني: جهوده في تلخيص السيرة في كتابه:«صفة الصفوة»

خاتمة البحث

أهم مصادر البحث